قالوا : أنت فى لبنان

قلت : عفواً ، لقد حسبت أنى فى لبنان[1]

وفررنا ونحن مستحيون . نحاول ألا نعيدها كرّة أخرى ولما خرجت فى الليل لمحت فى طريق واحدة من هؤلاء النسوة فحيتنى ، فقلت لها : مساء الخير يا مدموازيل

فقالت : مادموازيل إيه يا وقح ؟

قلت فى نفسى إنها متزوجة وقد ساءها أن دعوتها بالدموازيل (الآنسة) وأسرعت فتداركت الخطأ وقلت : بردون مدام

قالت : مدام فى عينك قليل الأدب ، بأى حق تمزح معى أنا (فلان) المحامى

قلت : بردون ، بردون

وولّيت هارباً ، فذهبت إلى صاحب الأوتيل فرجوته أن يعمل لنا طريقة للتفريق بين الرجل والمرأة ، فدهش منى ووجم لحظة ؛ ثم قدر أنى أمزح فانطلق ضاحكا

قلت : إنى لا أمزح ، ولكنى أقول الجدّ وقصصت عليه القصة ...

قال : وماذا نعمل ؟

قلت : لوحات صغيرة مثلا من النحاس ، كالتى توضع على السيارات لبيان رقمها ، أو على الدراجات ... يكتب عليها رجل . امرأة . تعلق فى الصدر تحت الثدى الأيسر أو تتخذ حلية من الذهب أو الفضة عليها صورة ديك مثلا أو دجاجة ، أو ... أو شاة أو خروف ، أو شىء آخر من علامات التذكير والتأنيث ...

فراقه اقتراحى وقبله على أنه نكتة ، ولكنه لم يفكر بالعمل به لأنه لم يجد حاجة إلى هذا التفريق ما دام المذهب الجديد يقول بمساواة الجنسين ؟

* * *

ولم نطل الاقامة فى صوفر ، لأننا لم نجد الأمير شكيب فعدنا أدراجنا إلى دمشق

(دمشق) على الطنطاوى

(١) عنيت لبنان الشرقي العربي وعنوا لبنان الغربي (المعرب)

الأدباء المحترفون

للأستاذ مصطفى جواد

الأدب فى كل أمة غذاء النفوس الصافية من كدر المادية المُبرّأة من أمراض الطمع والجشع ، السالمة من إسار الكايد والخدائع ؛ والأدباء فى كل شعب هم الطبقة الرفيعة فى المراتب البشرية ، المحلقة فى سماء الصفاء بأجنحة لطف أرق من الهواء . والمادية لا تؤمن بدين الأدب ولا عطف لها على البشرية ولا رحمة ، فالأديب نورانىّ والمادة بهيمية ترجع بالانسان إلى عصور كان ينازع فيها الوحوش فرائسها ، ويعد الشبع والرى من الدنيا نفائسها ؛ وكلما رق العقل فى الصناعات انخفضت العاطفة واستبدت المادية واستحكمت الوحشية ، فلولا الأدباء بين الناس كالنجوم الزهر[1] فى السماء الدنيا لبدا ليل المادية أشد ظلاماً وأهول منظراً . ولعله سيأتى زمان يتخفى فيه الأدباء كما كان الأنبياء يتستّرون من الناس فى أول الاستنباء ، ورأس المحنة وأيام الدعوة ، خشية الاستهزاء والازراء والتعذيب والتقتيل ، وإذن لا يعصم الأدباء يوم ذاك من ضربة المادية الأشبه جمهورية أفلاطون وإلا مثل المدينة الفاضلة التى أفكر فيها فيلسوف فاراب . أما مافعله الشيوعيون لأدباء الشيوع فى روسيا من قصرهم فى قرية نزهة وامدادهم بضرورى المادة ليستهتروا بالاستشاعة ويدعوا إلى التشارك فهو أخلق بالأدب المبتذل والشعور المنتحل والعواطف المطوفة والنفوس المأسورة والانفعالات المكبوتة ، فما أغنى الشيوعيين عما فعلوا وما كان أحرى الأدباء بالإباء على هذا الازدراء ! وكلما علت المادة امتاز الأدباء عن أهل المادة وعبدة الحيوانية ، فيعيشون منفردين معتزلين كالمتصوفة فى الربط الهادئة إلا من تسبيح وتحميد ، وكالرهبان فى الأديار الواجمة إلا من تكفير وارتسام ، يزرعون فيحصدون ويغرسون فيجتنون ، لا تجارة تلهيهم ولا تكالب يقسيهم ولا انخداع يؤذيهم ، فهم حينذاك صفوة

(١) الزهر جمع أزهر وزهراء ولا يجوز أن يقال « النجوم الزهراء » لأنه لم ينطق به فصحاء الأمة ولا أثبته قواعد لغتها ، وإن جاء فى الشعر قافية فهو من كبائر الضرائر

الصفوة ، وأيتام الانسانية وملائكة البشر ، يضيع أحدهم بين الناس كما يضيع الملك إذا هبط بين البشر ، بل هو أضيع من الأيتام في مأدبة اللئام ، فويل لأهل الأدب من شر قد اقترب .

الأدب عدوّ المادة ، والمادة غائلة الأدب . وأعنى بالأدب فى كل ما أسلفت من القول « مولدات العواطف ونتائج العقول من وصف حزين وأسباب حزنه ، ونعت فرح وأسباب فرحه ، مزخرفاً ببدائع الكون ، أو مطلياً ببهرجه وغلوائه ، ممهداً له بوصف الجمال وذكر القبح وتبيان حسن الخلق أو سوئه والتصريح بالمدح والقدح ، فيكون ذلك للأدب كالحلى للعروس أو كالحطب للنار » وحد هذا الأدب « حركة العواطف واشتغال العقل والتأسيس على الحقيقة والخيال » فهو — كما قدمنا — غذاء النفوس البشرية الرائقة وحبيب الانسانية وربيب الحقيقة والامكان ؛ فالمحترف بحرفة المادة لا يقدر على دخول جنة الأدب ؛ والأديب لا يستطيع الخروج إلى جهنم المادة وما أعفه عن ذلك . فكيف يبلغ امرؤ أن يتردد بين الجنة والنار ويجمع بين السلم والحرب ؟! وإذا ما رأينا واحداً قد ألم بالبرزخ تنفح إليه نسمات جنة الأدب من أمام ، وتلفحه شرارات المادة من وراء ، فهو لا أديب ولا مادى بل صاحب اختيار فى الاختبار ، ثم يصير إمّا إلى الجنّة وإمّا إلى النار ، فلذلك ومن ذلك قل الأدباء المحترفون لجمع المادة واحتجان البيضاء والصفراء ؛ وإنما سميناهم أدباء على سبيل أدب القدماء ؛ وهم فى رأينا « برزخيون » وصلهم الأدب كوصوله لمن قال « وجادت بوصل حين لا ينفع الوصل » وماتوا وهم فى عهد الاختبار والفتن والمحنة . ومن الأدباء من يضطره الزمان إلى الاحتراف فيستدفع الحرفة ضنك الزمان ، ولو ترك ونفسه وأنجى من ذل الحاجة ما لجأ إلى الحرفة ولا قاربها . ومن الأدباء المحترفين أبو القاسم نصر بن أحمد بن نصر بن مأمون الخبزأرزى ، نسبة إلى حرفته « خبز الأرز » فقد كان هذا أميّاً لا ينهجى ولا يكتب ، وكان يخبز الأرز بمربد البصرة فى دكان له ، وينشد الناس أشعاراً مقصورة على الغزل ، والناس يزدحمون عليه ، ويطربون باستماع شعره ، ويتعجبون من حاله وأمره ؛ وكان أبو الحسين محمد بن محمد المعروف بابن لنكك البصرى الشاعر المشهور — مع علو قدره عند البصريين — يتناب دكانه ليسمع شعره ، وقد اعتنى به وجمع له ديوانا ؛ وذكره الثعالبى فى اليتيمة ، والخطيب فى تاريخ بغداد ، وياقوت الحموى فى معجم الأدباء ، وابن خلكان فى الوفيات . قال ياقوت : « وكان ممن يفضلون الذكور على الإناث ، فكان أحداث البصرة يلتفون حوله ، ويتنافسون بميله إليهم ، ويحفظون شعره لسهولته ورقته [1] » وقد نزل نصر هذا بغداد وأقام بها دهراً طويلاً وقرئ عليه ديوانه فيها . حدّث الخطيب بسنده إلى أبى محمد عبد الله بن محمد الأكفانى البصرى ، قال : خرجت مع عمى أبى عبد الله الأكفانى الشاعر وأبى الحسين ابن لنكك وأبى عبد الله المضجع وأبى الحسن السماك [2] فى بطالة عيد ، وأنا يومئذ صبى أصحبهم ، فمشوا حتى انتهوا إلى نصر بن أحمد الخبزأرزى وهو جالس يخبز على طابقه ، فجلست الجماعة عنده يهنئونه بالعيد ويتعرفون خبره ، وهو يوقد السعف تحت الطابق ، فزاد فى الوقود فدخّنهم ، فنهضت الجماعة عند تزايد الدخان ؛ فقال نصر ابن أحمد لأبى الحسين بن لنكك : متى أراك يا أبا الحسين ؟ فقال أبو الحسين : إذا اتسخت ثيابى ؛ وكانت ثيابه يومئذ جُدُداً ، أنق ما يكون من البياض للتجمل بها فى العيد ؛ فمشينا فى سكّة بنى سمرة حتى انتهينا إلى دار أبى أحمد بن المثنى ، فجلس أبو الحسين ابن لنكك وقال : يا أصحابنا ، إن نصراً لا يخلى هذا المجلس الذى مضى لنا معه من شىء يقوله فيه ، ونحب أن نبدأه قبل أن يبدأنا واستدعى دواة وكتب :

لنصر في فؤادى فرط حب ... أنيف به على كل الصحاب
أتينـــاه فبخرنا بخوراً ... من السعف المدخن للثياب
فقمت مبادراً وظننت نصراً ... أراد بذاك طردى أو ذهابي
فقال : متى أراك أبا حسين ... فقلت له : إذا اتسخت ثيابى

وأنفذ الأبيات إلى نصر فأملى جوابها فقرأناه فاذا هو قد أجاب :

منحت أبا الحسين صميم ودى ... فداعبنى بألفاظ عـــذاب
أتى وثيابه كقتير شيبٍ ... فعدن له كريعان الشباب
ظننتُ جلوسه عندي لعرس ... فجئت له بتمسيك الثيـــاب
فقلت متى أراك أبا حسين ... فجاوبنى : إذا اتسخت ثيابى

(١) معجم الأدباء (٧ : ٢٠٨)
(٢) وردت فى تاريخ الخطيب « السياك » والصواب ما فى الوفيات وهو ما ذكرناه

فان كان التقزز فيه خير فلم يكنى الوصى أبا تراب[1]

وحكى الخالديان الشهيران فى كتاب الهدايا والتحف أن الخبز أرزى نصر بن احمد هذا أهدى إلى ابن زداد والى البصرة فصاً وكتب معه :

أهديتُ ما لو أن أضعافه ... مطرح عنـــدك ما بانا
كمثل بلقيس التى لم يزن ... إهداؤها عند ســـليمانا
هذا امتحان لك إن ترضهُ ... بان لنا أنك ترضانا[2]

قال ابن خلكان « وأخبار نصر ونوادره كثيرة وتوفى فى سنة سبع عشرة وثلثمائة . وتاريخ وفاته فيه نظر ، لأنه[3] ذكر فى تاريخه أن احمد بن منصور النوشرى المذكور سمع منه سنة خمس عشرين وثلاثمائة[4] » قال الخطيب : « روى عنه مقطعات من بعره المعافى بن زكريا الجريرى وأحمد بن منصور النوشرى أبو الحسن بن الجندي وأحمد بن محمد العباس الأخباري وغيرهم ؛ ذكر النوشرى أنه سمع منه ببغداد بباب خراسان فى سنة خمس عشرين وثلاثمائة[5] » والصحيح أن وفاته كانت فى سنة ٣٢٧ كما ورد في معجم الأدباء[6] ، ومما أورده له ابن خلكان :

خليلي هل أبصرتما أو سمعتما ... بأكرم من مولى تمشى إلى عبد ؟
أتى زائراً من غير وعد وقال لي : ... أجلك عن تعليق قلبك بالوجد
فما زال نجم الوصل بيني وبينه ... يدور بأفلاك السعادة والسعد
فطوراً على تقبيل نرجس ناظرٍ ... وطوراً على تعضيض تفاحة الخد

* * *

ألم يكفني ماناليَ من هواكم ... إلى أن طفقتم بين لاءٍ وضاحكِ
شماتتكم بي فوق ما قد أصابني ... ومابي دخول النار فى طرّ مالكِ

* * *

كم أناس وفوا لنا حين غابوا ... وأناس جفوا وهم حضّارُ
عرضوا ثم أعرضوا واستمالوا ... ثم مالوا وجاوروا ثم جاروا
لاتلمهم على التجنى فلو لم ... يتجنوا لم يحسن الاعتذارُ

* * *

بات الحبيب منادمي ... والسكر يصبغ وجنتيه
ثم اغتدى وقد ابتدا ... صنع الخمار بمقلتيه
وهبت له عيني الكرى ... وتعرضت نظراً إليه
شكراً لإحسان الزما ... ن كما يساعدني عليه

* * *

كم أقاسي لديك قالاً وقيلا ... وعدات تترى ومطلاً طويلا ؟
جمعة تنقضي وشهر يُوَلّى ... وأمانيك بكرةً وأصيلاً
إن يفتني منك الجميل من الفعـــل تعاطيتُ عنك صبراً جميلا
والهوى يستزيد حالاً فحالاً ... وكذا ينسلي قليلاً قليلاً
ويكَ لاتأمنْ صروف الليالي ... إنها تترك العزيز ذليلا
فكأني بحسن وجهك قد صا ... رت به اللحية : الرحيلَ الرحيلا
فتبدلت حين بُدّلت بالنو ... ر ظلاماً وساء ذاك بديلا
فكأن لم تكن قضيباً رطيباً ... وكأن لم تكن كثيباً مهيلا
عندها يشمت الذى لم تصله ... ويكون الذى وصلتَ خليلا

* * *

رأيتُ الهلال ووجه الحبيب ... فكانا هلالين عند النظر
فلم أدر من حيرتي فيهما ... هلال الدجى من هلال البشر
ولولا التورّد فى الوجنتين ... وما راعني من سواد الشعر
لكنتُ أظن الهلال الحبيبَ ... وكنتُ أظن الحبيبَ القمر
وذاك يغيبُ وذا حاضر ... وما من يغيبُ كما من حضر

ومما ذكره له ياقوت الحموىّ :

شاقني الأهل لم تشقني الديار ... والهوى صائر إلى حيث صاروا
جيرة فرقتهم غربة البيـــن وبين القلوب ذاك الجوارُ
كم أناس رعوا لنا حين غابوا ... ...

إلى آخر الأبيات المتقدّم ذكرها منقولة عن الوفيات

* * *

فلا تمنّ بتلفيق تكلّفهُ ... لصورةٍ حسنها الأصلى يكفيها
إن الدنانير لاتجلى وإن عتقت ... ولا تزاد على الحسن الذى فيها

وأورد له الخطيب :

بأبي أنتَ من مَلولٍ ألوف ... رُضتني بالأمان والتخويفِ
حار عقلي فى حكمك الجائر العد ... ل وفى خلقك الجليل اللطيف
أنتَ بالخصر والمؤزّر تحكى ... قوّة الشوق بالفؤاد الضعيفِ
ليس عن خبرة وصفتك لكن ... حركات دلّت على الموصوف
لك وجه كأنه البدر فى التمـــم عليه تطرّق من كسوف

وأغرب مافى حياة هذا الرجل المشهور بمزاورة اللذات وملابسة الشهوات وقوفه موقف الحكيم المتنصح والعفيف المتنطس فتسمع منه قوله :

(١) تاريخ الخطيب « ١٣ : ٢٩٨ — ٩ » ووفيات الأعيان « ٢ : ٢٨٢ » (٢) الوفيات « ٢ : ٢٨٤ » (٣) أى الخطيب كما سترى
(٤) الوفيات « ٢ : ٢٨٥ » (٥) تاريخ الخطيب « ١٣ : ٢٩٧ »
(٦) معجم الأدباء « ٧ : ٢٠٨ »

كم شهوة مستقرّة فرحاً قد انجلت عن حلول آفاتِ
وكم جهول تراه مشتريا سرور وقتٍ بغم أوقات
كم شهوات سلبن صاحبها ثوب الديانات والمروءات

وقد جمع جملة من الحكم وأشتاتاً من الأخلاق وركاماً من التجارب فى قوله :

لسان الفتى خنق الفتى حين يجهل وكل امرىء مابين فكيه مقتل
إذا ماللسان المرء أكثر هذره فذاك لسان بالبلاء موكل (١)
وكم فاتحٍ أبواب شر لنفسه إذا لم يكن قُفل على فيه مُقفل
كذا من رمى يوماً شرارات لفظه تلقته نيران الجوابات تشعل
ومن لم يُقيّد لفظه متجمّلاً سيطلق فيه كل ماليسَ يجمل
ومن لم يكن فى فيه ماء صيانةٍ فمن وجهه غصن المهابة يذبلُ
فلم تحسبنّ الفضل فى الحلم وحده بل الجهل فى بعض الأحايين أفضل
ومن ينتصرْ ممن بغى فهو مابنى وشرّ المسيئين الذى هو أوّلُ
وقد أوجب الله القصاص بعدله ولله حكم فى العقوبات منزلُ
فان كان قولٌ قد أصاب مقاتلاً فان جواب القول أدهى وأقتل
وقد قيل فى حفظ اللسان وحزنه مسائل من كل الفضائل أكملُ
ومن لم تقرّ به سلامةُ غيبهِ فقربانُهُ فى الوجه لايتقبّل
ومن يتخذ سوء التخلف عادةً فليس لديه فى عتاب مُعوّلُ
ومن كثرت منه الوقيعة طالباً بها عزّةً فهو المهين المذلّلُ
وعدلٌ مكافاة المسيء بفعله فماذا على من فى القضية يعدل
ولافضل فى الحسنى إلى من يخسها بلى عند من يزكو لديه التفضل
ومن جعل التعريض محصول مزحه فذاك على المقت المصرّح يحصلُ
ومن أمِن الآفات عجباً برأيه أحاطت به الآفات من حيث يجهل
أعلمكم ماعلمتنى تجاربى وقد قال قبلى قائل متمثّل :
إذا قلت قولاً كنت رهن جوابه فحاذر جواب السوء إن كنت تعقل
إذا شئت أن تحيا سعيداً مسلماً فدبّر وميّز ماتقول وتفعل (٢)

وذكر له الخطيب أبياتاً ثلاثة تدل على ارتباكه فى الهوى وهى :

ماجفانى من كان لى أنساً أنست شوقاً ببعض أسبابهْ
كمثل يعقوب بعد يوسف إذ حنّ إلى شمّ بعض أثوابهْ
دخلتُ باب الهوى ولى بصرٌ وفى خروجى عميتُ عن بابهْ

« بغداد » مصطفى جواد

(١) ذكر له هذا البيت وآخر بيت فى القصيدة ياقوت الحموى فى معجم الأدباء
(٢) تاريخ الخطيب « ١٢ : ٢٩٧ — ٨ »

الفلسفة الشرقيـــة

بحوث تحليلية

بقلم الدكتور محمد غلاب
أستاذ الفلسفة بكلية أصول الدين

— ٢٤ —

الفلسفة الصينية

العصر المنهجى

لم يكد حكم أسرة « تشو » ينتهى حوالى القرن السابع قبل المسيح حتى هوت بلاد الصين فى أعمق أنواع الفوضى والاضطراب ، وظلت ترزح تحت نير هـذا التدهور السياسى والاقتصادى والأخلاقى نحو خمسة قرون . فلما ضيقت هذه الأزمة الاجتماعية الخناق وأحكمت الضغط ، كان من الطبيعى أن تنفجر العقول الجبارة بعد أن استاءت الضمائر النبيلة ؛ وكان من الطبيعى كذلك أن يحدث هذا الاستياء وذلك الانفجار آثاراً بارزة فى الحياة الاجتماعية عامة ، وفى الحياة العقلية بنوع خاص ، وهذا هو الذى كان ، إذ لم يكد ينتهى الثلث الأول من القرن السادس حتى كان كوكب تلك الشخصية البارزة الممتازة وهى شخصية « لاهو — تسيه » قد سطع فى سماء الصين سطوعاً أعقبه انفجار ينبوع عبقرية أخرى فاقت الأولى عمقاً وسمواً ، وتكاتفت وإياها على زفع الفلسفة الصينية إلى صفوف منتجات الأمم الراقية ، تلك هي عبقرية « كونفيشيوس »

عرف « كونفيشيوس » « لاهو — تسيه » ولكنه لم يكن معه على وفاق فى الآراء الفلسفية ، بل كان وإياه على طرفى نقيض فى أهم النظريات ، إذ لم يكد « كونفيشيوس » ينضج ويعلن مذهبه حتى لاحظ الناس أن بين المذهبين خلافاً جوهرياً فى القواعد الأساسية ؛ ولم يكن هذا الخلاف حول عقيدة دينية أو رأى نظرى ، وإنما كان فى الفلسفة العملية ، لأنه نشأ من سؤال هام دعت إليه الحالة الاجتماعية فى بلاد الصين ، وهو : « ماهي الوسيلة الناجعة لإنقاذ البلاد من هذا التدهور ؟ »

بينما كان « لاهو — تسيه » يرى أن التنسك والزهادة واحتقار الحياة العملية هى الوسيلة لهذا الانقاذ المفتقد ، كان